لغز رحلة مع تقاسيم المسنين

بحثت طويلاً عن وظيفة تكون مصدر رزقي ، حتى كاد من الأسى و الإحباط ان ينقطع شقّي.

بحثت وبحثت وذُقت مرارة الشتائم , وذُلّ الرفض من ارباب العمل .. لكن ما تزال نفسي مُقاتلة , قلبي حصاناً لا تحزنه كثرة السقطات والعثرات , و وقع الشتائم و اللعنات التي تفوق وقع السيوف البارقات!

وفي يومٍ من الأيام ..أشرق بصيص الأمل , حين قرأت إعلان عن وظيفة سائق حافلة لدار المسنين ..وقد قاتلت للظفر بها أيّما قتال , و جنّدلت المنافسين عن اليمين منّي والشمال..فكنت أنا فارس الوظيفة و رافع لوائها!!

ومرّت الشهور ..وبدأت أتعرّف على المرؤوسين والموظفين والمسنّين , توطّدت علاقتي بهم ..فكنت المحبوب و المرغوب , و مَن لا يتمنّون لشمسه أن تنّذر بالغروب

اما اليوم ..فقد اصبحت طاعناً في السن , ارقد على فراش المرض ..وقد قاربت بالعمر امثال من كنت أقلّهم بتلك الحافلة ..حيث كان يجلس المسنّون فيها : شاحبي الوجوه , ذابلي الغصون , وقد أنهكت أجسادهم طول السنون ..

كنت شاباً يافعاً حينما حدثت معي هذه القصّة العجيبة , التي ما ازال الى اليوم لا ادري إن كانت حقيقة محضة , أم كابوساً واهماً عشته لدقائقٍ معدودة !

في ذلك النهار .. طلبت منّي إدارة الدار : أن أقلّ المسنين بالحافلة في رحلةٍ لأرياف المدينة ..

وكان يرافقني في الرحلة زميلٌ آخر , تطوّع كدليلٍ سياحي لمعرفته بالأماكن والطرقات , وليساعدني ايضاً على قضاء حوائج الرحلة و الإعتناء بالمسنين

..وبعد عدّة كيلومترات من نقطة انطلاقنا ..راودتني رغبة غريبة في التمعّن بوجوه المسنين , التي صارت تشابه وجوه الأطفال في براءتها! كانت يدايّ على المقود , بينما عينايّ تنظران بشرود في المرآة (الكبيرة المعلّقة فوقي) الى العجائز , الذي غفى معظمهم بعد دقائقٍ قليلة من بداية الرحلة ! و صرت اتأمّل تلك التجاعيد التي حُفرت على وجوههم و جلودهم , فتخيّلتها كصحراءٍ شاسعة , نسَجها شقاء السنين الطوال , فنُقشت خطوطها على الأجساد الهُزال ..

ثم رددّتُ بصري الى الطريق , فإذّ بها تتحوّل بثوانٍ الى طريقٍ صحراوي تمتدّ على مدى البصر .. فهالني ما رأيت ! اما ما حدث بعدها .. فأنا اذكرها الآن , كومضاتٍ سريعة في ذهني: محاولاتي اليائسة للعودة الى الطريق الإسفلتي ... فزع و صراخ الركّاب يرافقه سيلٌ من الشتائم .. فشلي انا و مساعدي في تحريك الحافلة التي غاصت في الرمال .. انهيار

اول مسنّ بأزمة قلبية .. ثم توالت الوفيات ! و لا ادري كم من الوقت امضيناه هناك دون طعام او ماء , الى ان مات الجميع ! فيما لفظ مساعدي (الشاب) انفاسه الأخيرة بين ذراعيّ .. لأركض بعدها في الصحراء , و انا أنثر التراب على رأسي كالمجنون , و ابكي كالمرأة الثكلى ..

واذكر انني في بداية المشكلة كنت خائفاً على خسارة وظيفتي .. لكن بعد موت اول ضحية , صرت مرعوباً من ان يزجّ بي في السجن بتهمة الإهمال .. امّا في اللحظات الأخيرة .. فكنت اخشى فقط على مصيري , بعد ان نحلَ جسمي من شدّة الجوع , وجفّت عروقي من كثرة العطش ..واذّ بقوايّ تنهار لأسقط على الأرض .. وبقيت مستلقياً هناك حتى حلّ الظلام .. و صرت اراقب النجوم , وانا ادنّدن اغنية كانت تغنيها لي والدتي قبل النوم , مُتجاهلاً صوت شيءٍ يزحف بالقرب مني !.. ورغم كل ذلك الخوف , الاّ انني شعرت بالسكينة الهدوء و كأنني استسلمت للقدر .. واغمضت عينايّ لأستعدّ لرحلة الموت الأبدية

وفجأة !! إنتبهت على يد مساعدي بعد ان وضعها على كتفي -سامر ! لما انحرفت هكذا عن الطريق ؟! ...هل نمت ؟ -ماذا ! لا ابداً !! ...كنت .. كنت ابتعد عن حفرة كبيرة كانت -...رجاءً انتبه .. لقد ارعبتهم يا رجل وهنا صرت احدّث نفسي:

هل نمت فعلاً و انا اقود ؟! بحياتي لم افعلها ..... افّ ! ياله من حلمٍ مزعج ثم نظرت من جديد الى المرآة الكبيرة , لأرى مساعدي و هو يحاول تهدأة العجائز ..

وانتبهت الى اعينهم الخائفة من ذلك الإنحراف السريع .. وعلى الفور ! غرقت بتأمّلي لهم من جديد ..و صرت انظر الى عيونهم الغائرة , و تخيّلتها بحيراتٍ عميقةٍ جداً , تخفي في عمقها أسرار حياتهم!

واذكر انني أشحت بنظري عن الطريق للحظة , لأتفاجأ !! ببحيرة كبيرة امامي ! فلم يسعفني الوقت لتفاديها , فنزلنا فيها .. لتبدأ البحيرة بسحبنا لداخلها .. وماهي إلا دقائق , حتى امتلأت الحافلة بالماء .. وصارت تغرق ! وكلّه بسبب رعونتي في القيادة ... وقبل ان يستوعب عقلي ما حصل , رأيت الركاب وهم يغرقون امام عيني ..و بدأت جثثهم تطفو على سطح الماء الواحد تلوّ الآخر .... بينما انا كنت اغرق اكثر واكثر لقاع البحيرة ..فأغمضت عينيّ مُتقبِّلاً مصيري البائس

وفجأة !! صحوت مجدداً على صرخات العجائز .. وصراخ مساعدي (قاصد) من الخلف:

-أيها السائق الأحمق ! انتبه!!!!!

فصرت اعتذر من الجميع و انا محرجٌ منهم ..

ثم اقترب قاصد مني , وقال بصوتٍ منخفض و متوتّر :

-لو كنت اعرف القيادة , لرميتك في الطريق و اكملنا بدونك!!

ثم صار يهدّدني بإبلاغ الأدارة عن قيادتي المتهوّرة التي ارعبت الجميع .. وانا بدوري وعدّته بالإنتباه اكثر ..... ثم أكملنا الطريق ولكن الوساوس عاودتني من جديد , و صارت تهمس لي:

)تأمّل يا سامر وجوههم البريئة , كما تتأمّل المناظر الطبيعية(فعدّت لحركتي الغبية من جديد , و نظرت اليهم .. و هذه المرّة : لفَت نظري شعورهم البيضاء المشيبة فتخيلها عقلي , كأراضٍ شاسعة من الثلوج تغطي رؤوسهم..

ثم إلتفت للطريق ثانيةً , و اذّ بها تتحوّل إلى طريقٍ مُثلج ! و قبل تدارك الموقف , غرِزنا فيها .. ثم نَدَفت السماء الثلج بكثافة , حتى غطّت الحافلة تماماً ..و حوصرنا في داخلها!

وصارت اجسادنا ترتعدّ من شدّة البرد , كما الخوف على مصيرنا واذكر ان العجائز في البداية , صاروا يترجّوننا لإنقاذهم .. لكن بعد ان فشلت مع مساعدي في فتح الباب , بدأوا يرموننا بالشتائم و اللعنات من خلف الكراسي المشابهة للثكنات

ولا ادري كم مرّ من الوقت قبل ان تهمد حركاتهم , و ألمح فيهم زرقة البرد والموت ..ثم تساقطوا كأوراق شجرةٍ شاتية.. ثم لحقهم مساعدي (قاصد) ..وبقيت أنتظر وحدي موعد المنيّة , مُحاطاً بجثثهم المُجمّدة ! قبل ان استسلم للنوم الأبدي

واذّ بي اشعر بصفعة قوية عابرة للقارات تستقر فوق وجنتي !
-أيييييي !...قاصد!!!

-نعم قاصد ، أيها المعتوه !! أوقف الحافلة عند اقرب محطة , و سنتصل من هناك بدار المسنين ليرسلوا لنا من يقود مكانك , ايها الغبي !!
-انا لا ادري حقاً ما يحصل معي ..انا بحياتي لم..

-وفّر تبريراتك للمدير ..لأني بالتأكيد سأقدّم تقريراً للإدارة عن هذه الرحلة السيئة !! و احمد ربك انه لم يمت احدٌ منهم بالسكتة القلبية !

وفي المحطّة ..أنتظرنا قرابة ساعة , قبل ان يصل احد موظفي الدار (بسيارة اجرة) الينا ..ثم قاد الحافلة عائداً بنا لدار العجزة ..و بعد ساعة من وصولنا ..تم فصلي من العمل .

وهآقد عدّت عاطلاً عن العمل ..وكأن بؤسي السابق عاد ليحتضنني من جديد .. ليحدّثني عن شوقه لي , وعن مقدار حزنه على فراقي بعد ان وجدت تلك وظيفة , وعن قهره من نسياني لأيامه البائسة البغيضة! فصار لي من إسمي (سامر) نصيب , فأصبحت سامراً لليل و النهار بلا عمل.. أشدو فيهما بحظّي العاثر , واتحسّر على زماني الغابر..

والآن !! أحكي لكم هذه القصة وانا على سرير المرض , في منزلي المتواضع الذي ورثته عن أهلي ..وقد بلغت من الكبر عتيّاً , انتظر وحدي لحظات الوداع الأخير..و اقول لأرواح اولئك العجائز:

انتظروني !! فقريباً جداً سأدفع ضريبة الرعب الذي سقيته لكم في تلك الرحلة الغريبة آه يا الهي ! الألم يزداد.. يبدو انه حان موعد وداعنا ايّها القارىءهل سترافقني في رحلتي الطويلة هذه ؟لا تخفّ !! فهذه المرّة لن أقود شيئاً ماذا قلت ؟ لا تريد ! .. لكن انا ...آآآآه ! كم الموت مُوجع .. عليّ التوقف عن الكتابة الآن .. فالألم لم يعد يطاق

وهنا !! سقط القلم من يد العجوز , الذي رفع اصبعه مُتشهّداً .. قبل ان يصبح سامر جسداً ضامر , في طريقٍ بالغيبيّات عامر ادعوا له بالرحمة ..و أن لا تكون آخرته حزينة بائسة .